

تعزيز القيم الإيجابية للقومية والوطنية
وأثرها في استقرار المجتمع في فكر بديع الزمان النورسي

الدكتور: محمد بوديان

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية/ قسطنطينة - الجزائر

مقدمة:

إنَّ الحركات الإصلاحية المعاصرة كانت وليدة بيئاتها؛ وفق مشارب أهلها؛ والظروف والملابسات التي ارتبطت بها الرُّقع الجغرافية التي ظهرت بها؛ وطبيعة الشعب الساكن بها وأحواله. وهي -كما ترى- معطيات كثيرة لا يمكن للداعية المسلم أن يغفلها في خطّه لمساراته الدعويّة. وقد عاصر النُّورسي التّأثّر بالدعوات القوميّة - وهي ذات اتّجاهاتٍ وأغراضٍ شتّى - والتي كان لها ضمن عوامل أخرى كثيرة - آثارٌ في وحدة الأُمّة الإسلاميّة سلبيّاً وإيجابيّاً. ولكنّه بما فقهه من كنوز الكتاب العزيز كان يدرك قيمة الأرض والوطن؛ ويضعهما في تناغمٍ مع بقيّة المحدّدات للهويّة التي يضبطُ نسيجها الإسلام؛ فقام بترشيد المفاهيم المتعلّقة بالقوميّة والوطنية وفق ما فهمه من آيات الكتاب العزيز؛ وعلى ذلك جاءت رسائل النُّور متكلمةً وموضّحةً للإفادة من القوميّة الإيجابيّة، وصهرها في بوتقة الإسلام والوطن؛ من أجل بناء غدٍ أفضل للأوطان وللأُمّة الإسلاميّة جمعاء. والذي يطالع كلمات النورسي في هذا المجال، يجدها صادقةً على عالم اليوم بحذافيرها، وهو ما جعلني أسعى إلى كشف منهجية كلمات النُّورسي التي وقفنّه على تلك الحقائق.

المبحث الأوّل: ضبط الجهاز المفاهيمي.

1/ مفهوم الوطنية.

أ/ لغةً: الوطن -محركةٌ ويُسكنُ- محلُّ الإنسان ومنزل الإقامة، ومقرّه. ووطنٌ به يَطنُ، وأوطنَ: أقام. وأوطنه ووطنه واستوطنه: اتخذهُ وطناً. ومن المجاز: هذه أوطان الغنم لمرابضها؛ والإبل تحنُّ إلى أوطانها¹. والوطن

1- أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا: معجم المقاييس في اللغة؛ ت شهاب الدّين أبو عمرو؛ (دط)، دار الفكر: بيروت- لبنان، (دت)، ص1096. مجد الدّين محمّد بن يعقوب الفيروزآبادي: القاموس المحيط، ت خليل مأمون شيجا؛ (ط2)، دار المعرفة: بيروت- لبنان، 2007م، ص1406.

الأصلي: هو مولد الرجل، والبلد الذي هو فيه؛ أو البلدة التي تأهل فيها. ووطن الإقامة: موضع ينوي أن يستقر فيه خمسة عشر يوماً، أو أكثر، من غير أن يتخذ مسكناً وليس له فيه أهل. ووطن السكنى: هو المكان الذي ينوي المسافر أن يقيم فيه أقل من خمسة عشر يوماً¹.

ب/ اصطلاحاً.

الوطنية مأخوذة من الوطن، ومعناها أن يشعر جميع أبناء الوطن الواحد بالولاء، والتعصب له؛ أيًا كانت أصولهم التي ينتمون إليها، وأجناسهم التي انحدروا منها. أي إن الولاء فيها للأرض بصرف النظر عن القوم أو اللغة أو الجنس.² وفي أبواب الأدب: الوطنية شعورٌ بحب الوطن، يعبر عنه أحياناً نثراً أو نظماً؛ ويتضمن ما تحتويه نفس الشاعر، أو الكاتب من مقدار إخلاصه لوطنه؛ كما ينطوي على حث القارئ على المشاركة في هذا الشعور.³

والعلاقة بين الوطن والمواطنة هي علاقة بين الأصل والفرع؛ فالوطن هو مفهومٌ جغرافي وتاريخي وثقافي وحضاري وأخلاقي ودستوري. والانتماء إلى الوطن يُكسب المرء صفة "الوطني" وهي التي تعني حب الوطن، والتعلق به، والدفاع عنه، والغيرة عليه، والعمل على خدمته وازدهاره وتقدمه، والنهوض به،

أبو القاسم جار الله محمود بن عمر بن أحمد الرَّمْخَرِيُّ: أساس البلاغة؛ تحقيق محمد باسل عيون السود، (ط1)، دار الكتب العلمية: بيروت- لبنان، 1998م، (343/2). أحمد بن محمد بن علي الفيومي المقرئ: المصباح المنير، مكتبة لبنان: بيروت- لبنان، 1987م، ص 254.

1- علي بن محمد الشريف الجرجاني: كتاب التعريفات، مكتبة لبنان: بيروت- لبنان، 1985م، ص 273. و أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني الكوفي: الكليات؛ تحقيق عدنان درويش، ومحمد المصري، (ط2)، دار الرسالة: بيروت- لبنان، 1998م، ص 940.

2- محمد قطب: مذاهب فكرية معاصرة، (ط9)، دار الشروق: القاهرة- مصر، 2001م، ص 454.

3- مجدي وهبة، كامل المهندس: معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مكتبة لبنان: بيروت- لبنان، 1984م، ص 435.

والتضحية إذا اقتضت الحال في سبيل سيادته وعزته وكرامته، وحرّيته واستقلاله¹. ومفهوم المواطنة أصبح يعني في الأدبيات السياسية: انبثاق علاقة جديدة بين المواطن والدولة؛ وكون هذه العلاقة التعاقدية أو التشاركية لا مجال فيها للتمييز العقائدي ولا الإثني ولا اللغوي².

2/ مفهوم القومية.

أ/ لغةً: ترجع إلى "القوم" وهم: جماعة الرجال، ليس فيهم امرأة؛ الواحد رجلٌ وامرأةٌ من غير لفظه؛ والجمع أقوامٌ. سُموا بذلك لقيامهم بالعظائم، والمهمّات... وربما دخل النساء تبعاً؛ لأنّ قوم كلّ نبّي رجالٌ ونساءٌ. وقومُ الرجل أقرباؤه الذين يجتمعون معه في جدٍّ واحدٍ؛ وقد يقيم الرجلُ بين الأجنبي، فيسمّيهم قومه مجازاً للمجاورة³.

ب/ اصطلاحاً.

القومية نزعة تربط الفرد بقومه بروابط متجانسة، كالقربة، واللغة، والعادات، والتقاليد، والتاريخ، وتوحدُ بينهم أهدافَ مشتركة، كالوحدّة والتحرّر، والحرية، والعدالة. وهكذا تمّ الرّبطُ في هذا التعريف بين تعريف القومية ومقوماتها، أو عوامل تكوينها⁴. والقومية معناها أنّ أبناء الأصل الواحد، واللغة الواحدة ينبغي أن يكون ولاؤهم واحداً، وإن تعدّدت أرضهم، وتفرّقت أوطانهم. وإن كان معناها أيضاً السعي في النّهاية إلى توحيد الوطن، بحيث تجتمع القومية الواحدة في

1- أبو بكر القادري: الوطن والمواطنة وآفاق التنمية البشرية، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية: سلسلة الندوات، ص27.

2- محمد الكتّاني: الهوية الوطنية والتنمية: تحديات ومساءلات؛ مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية: سلسلة الندوات، ص48.

3- المصباح المنير، مرجع سابق، ص 199. معجم المقاييس في اللغة؛ مصدر سابق، ص 869.

4- عدنان محمد زرزور: القومية والعلمانية - مدخل علمي-، ط1، مؤسسة الرسالة: عمّان - الأردن، 1992م، ص30؛ منقولاً، ولم يذكر عمّن نقله.

وطنٍ شاملٍ؛ فيكون الولاء للقومية مصحوبًا بالولاء للأرض؛ ولكن الولاء للقومية هو الأصل، ولو لم تتحقق وحدة الأرض.¹

وعن منزلة الدين في مفاهيم القومية المعاصرة؛ فإننا نجد أنَّ "دعاة القومية - على وجه الإجمال - أغفلوا دور الدين، أو العقيدة الدينية في قيام الحضارت، ونشوء الأمم والقوميات؛ كما أغفلوا دوره في الربط بين أفراد جماعة - أو جنس - من الناس؛ على الرغم من أثره - وربما أثر المذهبية الدينية فوق ذلك - في الحركات القومية التي اجتاحت أوروبا في القرن التاسع عشر من جهة؛ أو بين القومية العربية والدين الإسلامي - بحسب عبارة الأستاذ ساطع الحصري - من جهة أخرى".²

3/ منهج النورسي في رسائل النور عامّة ومسألة القومية خاصة.

أولاً: شخصيته وأدواته المنهجية.

أمّا من حيث شخصيته الدعوية والباحثة؛ فقد عمل على صوغها في مدرسة القرآن الحياتية؛ مؤمناً بأمرين:

أ- بأنَّ القرآن العظيم مصدرُ كلِّ هداية اجتماعية ونفسية وسياسية؛ وفي الإعراض عنه كلُّ خسران ودمارٍ لسنن الاجتماع الإنساني، في كلِّ مظهره. وإيمانه مطلقٌ في أنَّ العمل الإيجابي منطلقاته وأساسه بصورة مكتملة هي في القرآن العظيم.

ب- وبأنَّ الزمانَ زمانُ إنقاذ الإيمان؛ وكلُّ اشتغالٍ بما دونه ممّا يبذد الجهود، إنمّ.

وعلى ذلك ووفق هذين الأساسين تكوّنت شخصية النورسي الدعوية كالاتي:

1- مذاهب فكرية معاصرة، مرجع سابق، ص 454.

2- القومية والعلمانية - مدخل علمي-، مرجع سابق، ص 31.

- هو عالم قرآني لا ناشط سياسي؛ وإنما كلامه الذي يلامس به السياسة، هو بسبب أن القرآن هادٍ في كل شيء، والسياسة تدخل تحت سلطانه، ولذلك هو يلج إلى الموضوع من باب القرآن، لا من باب فنون السياسة إيجابياً وسلبياً.
- هو داعية زمان إنقاذ الإيمان، وهو عدو لكل ما يقدر في الإيمان، ومنه القومية السلبية؛ يقول رحمه الله: اعلم أن العصبية العنصرية الجاهلية، ما هي إلا الغفلة المتساندة المتصالبة؛ وإلا الضلالة والرياء، والظلم المتجاوبة المتعاونة. فيصير الخلق وملته كمعبوده - العباد بالله - وأما الحمية الإسلامية فهي الثور المهترئ المنعكس من ضياء الإيمان.¹
- ليس هو بالمؤرخ ولا بالحاكم على التاريخ؛ ولكنه يدرك فلسفته وحيثياته، وخاصة في جوانبه المرة؛ وإذا كان التاريخ تتكرر أحداثه؛ فإنه لا يريد للأحداث الأليمة أن تُعاد.
- هو ليس بعالم نفس؛ ولكنه عالم بالنفس الإنسانية التي حدّثه رؤيه عنها في القرآن العظيم.
- وليس هو بعالم في الاجتماع؛ ولا يدعي فوقيّة في معرفة سنن العمران البشري؛ ولكنه يشاهد عظمة الله في اجتماع الناس وعمران الأرض؛ ويرى وجود آيات الله واقعياً حين الالتزام؛ ويرى معالم الدمار حين تنكّبها.

1- بديع الزمان النورسي: المثنوي العربي النوري؛ ترجمة إحسان قاسم الصالحي؛ ط1، شركة سوزلر: القاهرة- مصر، 1995م، ص213.

- وأما عن اعتقاده في نفسه فيعلمها عدوه؛ يجاهدها ليلاً ونهاراً؛ وهو لا يعدُّ نفسه قائدًا للأمة، وإنما جنديًا في جيش النبي صَلَّى الله عليه وسلم؛ تحت لواء القرآن العظيم.

وأما فيما يتعلَّق بأسلوبه: فهو يحاول قدر الإمكان مخاطبة الإنسان في فطرته وإنسانيته، خاصةً جوانبها الروحانية؛ لا يملُّ من تكرار النصيحة، ولا يهاب من المصادمة، ولا يرتدُّ خائبًا من رفض كلامه؛ يخاطب الفردَ ويخاطب الجماعات والمجتمعات؛ يخاطب المسلم والملحدَ والنصراني واليهودي؛ يخاطب الظالم والمظلوم؛ يخاطب مخلوقات ربِّه ويحاورها؛ ويخاطب أناءً؛ وهو في كلِّ ذلك يحاكي أسلوبَ القرآن العظيم في أنواع الخطاب المختلفة. وإنَّك تأنُّسُ منه في المستوى الروحاني: إنكار الأنا، وإخلاص النية، وتفجير منابع النصح والمحبة. وفي المستوى اللُّغوي: اعتماد أسلوب بليغ وغير مُتكلِّف، يربطك بلغة القرآن بما يعقده لك من صلةٍ به. وفي المستوى الحجاجي: بذلِّ الوسع في الإقناع بكلِّ وسيلةٍ شريفةٍ؛ بعيدًا عن التشغيب المنكر، بل يسلك في ذلك بالبراهين البسيطة، التي تتوافق مع الفطر، والتي يمكن أن يفهما جميع النَّاس على اختلاف مستوياتهم الثقافية والعلمية؛ وهو يسلكُ بالقارئ تلك الدروب من دون اعتباره خصمًا يريد الظهور عليه؛ بل أحَّا كريمًا يحبُّ له ما يحبُّ لنفسه. وأما إذا ما قمتَ بتتبُّع رسائل الثور فلا بدَّ أن تتشعَّب بالكثير من المنهجية والأخلاقية، ومنها الآتي:

أ. هو لا يؤمن ثمَّ يستدل؛ وإنما يستقرئ القرآن، فيأتمر به، ثمَّ يمتثل.

ب. هو لا يعتدُّ بالمخالف بل بالخلاف، الذي يتوجَّه إليه؛ ولذلك صار كثيرٌ ممَّن كان يُعاديهِ، ذائبًا بين يديه، تلميذًا.

ب. صدق الإيمان لديه يرشُّحُ منه، واطمئنانه إلى ما يدافع عنه يتفجَّر من كلماته.

ج. تمييزه بين الإيجابي والسلبي في الألفاظ المحتملة؛ فليس يقبلها بإطلاق، وليس يرفضها بإطلاق؛ بل يفصل.

د. اعتماده الألفاظ القرآنية - لجلالها وشرفها- كلما استطاع إلى ذلك سبيلاً.

هـ. استشهاده - من بعد القرآن العظيم- متكاملة: بالكون، والتاريخ، والعلوم، والواقع، والنفس، والاجتماع... الخ.

و. له صلابة وقوة في الرد، مع حنو ورحمة في أن معاً.

ز. إيمانه بضرورة أن تحيا الأسرة الإنسانية فيما يجمع لا ما يفرق؛ وفيما ينفع لا ما يضر.

ح. يربط كل شيء بالمسألة الرئيسة التي شغل حياته في الدفاع عنها، وهي العقائد الإسلامية في مقابل سيل الشبهات الكثيرة التي زحفت بها الحضارة الغربية زمانئذٍ.

ط. عمله ودعوته وتعليمه يريد منه الإيجابية كيفما كانت السبل إليها؛ فهو لا يعارض لأجل المعارضة، ولا يوافق لغاية المداينة، أو رضى الناس عنه؛ ولا يستغل الناس المدعوين كدروع بشرية يُضحى بهم... إلى آخر ذلك مما يطول استقصاؤه.

ثانياً: صورة الإشكالية المبحوثة في ذهن النورسي.

قد عايش النورسي تغيرات ذات وزن كبير؛ حيث وجد أن النظم الحديثة - والتي يراد للمسلمين أن يتبعوها حرفياً - "لا تأبه للدين؛ ولا للردة عنه؛ إنما لأن مذهبيتها مادية لا تقوم على العقيدة الدينية، أو لأنها لا مذهبية على الإطلاق".¹ وكذلك أصبحت دولة العصر دولة إقليمية؛ بمعنى أن الإقليم صار عنصرها

1- انظر: حافظ عثمان: الإسلام والصراعات الدينية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ص 245.

الأساس الذي يركز عليهما العنصران الآخريان: الشعب والسيادة. وهكذا لم تعد رابطة الشعب بالدولة رابطة عقيدة؛ وإنما أصبحت رابطة ولاءٍ سياسيٍّ¹. ومجمل كلام الثورسي في القومية والوطنية يوظف فيه لفظتي: "الإيجابية" ونقيضتها "السلبية". والمشكلة لديه ليست في الوطنية والشعور الوطني النبيل؛ وإنما فيما يتعلّق بإشراب تلك المشاعر بالجوانب السلبية للقومية. وعلى ذلك جاء مجمل كلامه متعلّقاً أساساً بالقومية، لانقسامها بين مدحٍ وذمٍّ، وانقسام النَّاس حولها. فالإيجابي من الشعور القومي ينتعش بنموّ الشفقة على بني الجنس التي تدفع إلى التّعاون والتّعارف. أمّا السّلبّي فهو الذي ينشأ من الحرص على العرق والجنس الذي يسبّب التّناكر والتّعاند؛ والإسلام يرفض هذا الأخير². وأمّا عن مفهوم العمل الإيجابي في فكر الثورسي فهو ما توافق مع الدّين إذ يقول: ليس بالإمكان القيام بعملٍ إيجابيٍّ بناءً مع التهاون في الدّين. أمّا القيام بعملٍ سلبيٍّ فليس الإسلام بحاجةٍ إليه؛ كفاه ما تعرّض له من جروحٍ ومصائب³. ولذلك قد تجد في رسائل الثور حزناً؛ قد تجد ألماً؛ قد تجد صنوف معاناة؛ وإنما لن تُصادف يأساً أبداً؛ لأنّ اليأس نهاية كلّ عملٍ إيجابيٍّ؛ ودخولٌ إلى عوالم السلبية غير المتناهية.

وأمّا عن الآليّات؛ فهو رحمه الله تعالى يفهم الآليّات الإسلاميّة في شكلها البسيط المتوافق مع الفطرة؛ وإن كان في مقابل ذلك في مجال أدوات ضبط الآليّات يُبدي عمق العالم المتبحّر في فنون الشريعة حرّاً ولفظاً، ومعنى، وأدلةً

1- انظر: علي بن عبد الرحمن الطيّار: حقوق غير المسلمين في الدولة الإسلاميّة، ط2، الرياض- المملكة العربية السعودية، 2006م، ص 160.

2- بديع الزمان النورسي: صيفل الإسلام - أو آثار سعيد القديم-؛ ترجمة إحسان قاسم الصالحي؛ ط3، شركة سوزلر: القاهرة- مصر، 2002م، ص 334-335.

3- المثنوي العربي الثوري، مرجع سابق، ص 202.

من كتابٍ وسنّةٍ، واستشهادات بوقائع التاريخ المعاصرة والماضية. كما إنّه رضي الله عنه يُبدي شفقةً ورحمةً بالعالم الإنساني جميعاً؛ وهو ما جعله يضع نُصب عينيه استقرار المجتمعات الإسلاميّة؛ بل والمجتمعات الإنسانية.

كما إنّه في تحليلاته يتوافق دوماً مع الفطرة فهو يعلم أنّ: « لكلّ أحدٍ علاقاتٍ بالمحبّة والشفقة مع أقاربه، ثمّ مع أفراد عشيرته، ثمّ مع أفراد ملّته؛ ثمّ مع أفراد نوعه؛ ثمّ مع أبناء جنسه؛ ثمّ مع أجزاء الكائنات. بحيثُ يمكن أن يتألّم بمصائبهم، ويتلذذ بسعاداتهم - وإن لم يشعُر - لا سيّما مع من أحبه لكمالهِ من جماهير الأنبياء والأولياء والأتقياء».¹ فهذه أشياء تُنمّي وتُثَمّر. وأمّا ما عارض ذلك من إراداتٍ شرّيرة فلا بدّ من إزالة ضرره. وإذا كان أحدُ الذين عادوا هذا الدّين العظيم قد قال: « إنّ أوّل ما يجب عمله للقضاء على الإسلام هو: إيجاد القوميّات».² فإنّ الثُّورسي جعل يصدحُ في الآفاق: "ألا إنّ العنصريّة ودعوى القوميّة خطر عظيم".³

المبحث الثاني:

المناحي الإيجابية لمفاهيم القوميّة والوطنية لدى الثُّورسي

إنّ نظر هذا القرّانيّ الرّبّاني إلى مسألتي القوميّة والوطنية من خلال اشتغاله بكتاب الله تعالى كان محكوماً بأسسٍ ومنطلقاتٍ ثابتة في الكتاب العزيز، وفق ظروفٍ وملابساتٍ اجتماعيّة وسياسيّة وتاريخيّة؛ مع حسن جمع بينهما وإسقاطٍ للنصوص على الواقع، وحسن توجيهٍ للعواطف الفطريّة؛ وذلك كالآتي:

1- المثنوي، ص448.

2- القائل هو الدكتور " صمويل زويمر " كبير المبشّرين البروتستانت في الشرق؛ أنور الجندي: سقوط مفهوم القوميّة الوافد، دار الأنصار: القاهرة- مصر، ص4.

3- بديع الزمان النورسي: الملاحق في فقه دعوة الثُّور؛ ترجمة إحسان قاسم الصالحي؛ ط3، شركة سوزلر: القاهرة- مصر، 1999م، ص415.

أ/ من حيث المنطلقات.

فأما المنطلقات عنده فهي واضحة، تتعلّق بالآيات القرآنيّة المتحدّثة عن خلق الإنسان والغاية من ذلك الخلق، مع بيان كرامته. يقول النورسي في قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾¹. أي خلقناكم طوائف، وقبائل، وأمماً، وشعوباً كي يعرف بعضكم بعضاً؛ وتعرّفوا على علاقاتكم الاجتماعيّة، لتتعارفوا فيما بينكم. ولم نجعلكم قبائل وطوائف لتتناكروا فتتخاصموا.² إذ كما أنّ هناك روابط تربط الجنديّ بفصيله، وفوجِه، ولوائه، وفرقته في الجيش؛ وله واجبٌ ووظيفةٌ في كلّ منها؛ كذلك كلّ إنسانٍ في المجتمع له روابط متسلسلة، ووظائفٌ مترابطة. فلو اختلطت هذه الروابط والوظائف، ولم تتعيّن وتحدّد، لما كان هناك تعاونٌ ولا تعارف. فتموّ الشعور القوميّ في الشّخص إمّا أن يكون إيجابياً، أو سلبياً.³ وإنّ جوهر الحياة الاجتماعيّة الإنسانيّة - ولا سيّما للأمة الإسلاميّة - وأساسها هو: وجود محبّة خالصة بين الأقرباء؛ ووجود رابطة وثيقة بين القبائل والطوائف؛ ووجود أخوة معنويّة وتعاونيّة نحو إخوته المؤمنين ضمن القوميّة الإسلاميّة؛ ووجود علاقة فداءٍ نحو قومه وجنسه؛ ووجود التزامٍ قويٍّ ورابطة قويّة لا تهتزّ مع الحقائق القرآنيّة التي تُنقِذُ حياته الأبديّة.⁴

1- الحجرات: 13.

2- بديع الزمان النورسي: المكتوبات؛ ترجمة إحسان قاسم الصالحي؛ شركة سوزلر: القاهرة- مصر، 2001م، ص 413.

3- صيفل الإسلام - أو آثار سعيد القديم، مرجع سابق، ص 357.

4- بديع الزمان النورسي: كليات رسائل النور: الشعاعات؛ ترجمة إحسان قاسم الصالحي؛ ط2، شركة سوزلر: القاهرة- مصر، 1993م، ص 465.

وإذا كانت الآلية التثقيف، فإن تاريخ المسلمين هو التحقيق؛ ومن أمثلة ذلك اشتراك قوميات عديدة في حمل ميراث الإسلام وخدمته؛ وقد جعل ابن خلدون عنواناً للفصل الثالث والأربعين من مقدمته: "في أن حملة العلم في الإسلام أكثرهم العجم"؛ قال: من الغريب الواقع أن حملة العلم في الملة الإسلامية أكثرهم العجم، لا من العلوم الشرعية، ولا من العلوم العقلية، إلا في القليل النادر. وإن كان منهم العربي في نسبته، فهو أعجمي في لغته ومرباه ومشيخته. مع أن الملة عربية وصاحب شريعته عربي¹. فالعبرة إذن بخدمة الدين، والالتزام به؛ لا بالاختلافات العرقية والإثنية، والجنسية، ونحوها من المفروقات.

ب/الظروف والملابسات.

إنه ما كان ليعزب عن فكر الثورسي كون آيات القرآن الكريم صالحةً أبدياً لكل زمان ومكان وأهليهما؛ وإنما كان يدرك أنه لابد من حسن ربط أهل الأزمنة والأمكنة المختلفة بفقه الآيات الكريمات، فالتفسير له ارتباط وثيق بالظروف والملابسات التي تحتاج إلى حلول من كتاب الله تعالى؛ وبخاصة حين يتعلق الأمر بتغييرها؛ والثورسي رحمه الله تعالى قد أيقن أن الفرق الأساسي في بداية القرن العشرين كان بين الهوية الدينية التي تستند على الفكر الإسلامي؛ وبين الهوية القومية التي تستند على التيارات القومية التركية وغيرها. وهنا نرى أنه قد سعى سعيد القديم الذي رأى التأثير الحلولي للتيارات القومية لتأسيس توافق وانتظام بين هاتين الهويتين من طرف؛ كما مدح الهويات القومية التي خدمت

1- عبد الرحمن بن خلدون: المقدمة؛ ت خليل شحادة، مراجعة سهيل زكار؛ (دط)، دار الفكر: بيروت- لبنان، 2001م، ص 747-748.

الإسلام بمختلف الوسائل، واعتبرها أجزاء التوحيد للهداية الإسلامية من طرف آخر.¹

ج/ التوجيه السليم.

لقد رأينا كيف أنّ المعاني المتعلقة بالوطن والقومية هي في أساسها معاني جميلة سواء من ناحية اللغة، أو الاصطلاح؛ واختلاف الأوطان والقوميات له ضروراته وأدواره في الاجتماع الإنساني؛ وقد سبق أن بيّنا في العنصر السابق كيف أنّ الظروف والملابسات كانت تستثمر في الحركات القومية من أجل تقنيت الأوطان، واستعباد أهلها؛ فكما قال أحد الغربيين: «فإنّ تحريك الأقليات هو دائماً عملٌ إيجابيٌّ، لما ينتج عنه من آثارٍ تدميريةٍ على المجتمع المستقر».²

والحل عند النورسي هو أنّ الوحدة بين الدين والقومية يجب أن تتخذ مكانة في أعلى الهرم للهوية الإسلامية. وهذا هو أهم فرق بين المجتمعات الغربية التي تتخذ القومية أساساً لهويتها، والمجتمعات الشرقية التي جعلت الدين والقومية وحدة لا تتجزأ.³ قال النورسي رضي الله تعالى عنه- موجّهاً للشعور إيجابياً: « القومية الإيجابية نابعة من حاجةٍ داخليةٍ للحياة الاجتماعية؛ وهي سببٌ للتعاون والتساند؛ وتحقق قوةً نافعةً للمجتمع؛ وتكون وسيلةً لإسنادٍ أكثر للأخوة الإسلامية. هذا الفكر الإيجابي القومي ينبغي أن يكون خادماً للإسلام، وأن

1- أحمد داود أوغلو: سياسة العالم الإسلامي في القرن العشرين في نظر النورسي؛ مبحث منشور ضمن أعمال المؤتمر العالمي لبديع الزمان سعيد النورسي، تجديد الفكر الإسلامي في القرن العشرين، وبديع الزمان سعيد النورسي، (ط1)، 1996م، ص 576. بتصرف طفيف.

2- العبارة لـ"موشي شاريت" في مذكراته بتاريخ 18 مارس سنة 1954م، نقلاً عن: محمّد عمارة: الإسلام والآخر "من يعترف بمن؟ ومن ينكر من؟" مكتبة الشروق الدولية: القاهرة- مصر، ص122 نقلاً عن سعد الدين إبراهيم: الملل والنحل والأعراق، ص740، 748.

3- سياسة العالم الإسلامي في القرن العشرين في نظر النورسي؛ بحث سابق، ص 576.

يكون قلعةً حصينةً له، وسورًا منيعًا حوله؛ لا أن يحلَّ محلَّ الإسلام، ولا بديلاً عنه. لأنَّ الأخوة التي يمنحها الإسلام تتضمن ألف أنواع الأخوة؛ وإنَّها تبقى خالدةً في عالم البقاء، وعالم البرزخ. ولهذا فلا تكون الأخوة القومية مهما كانت قويةً إلا ستارًا من أستار الأخوة الإسلامية؛ وبخلافه -أي إقامة القومية بديلاً عن الإسلام- جنايةٌ خرقاء، أشبه ما يكون بوضع أحجار القلعة في خزينة ألماس فيها، وطرح الألماسات خارج القلعة».¹

● المبحث الثالث: المناحي السلبية للتوظيف الخاطئ لمفاهيم القومية

والوطنية بحسب النورسي.

إنَّك لا تجد المفاهيم التي يقع الاختلاف حولها، ويكثر فيها اللَّغَطُ، وتبادل التُّهم حول أحكامها، لا تجد - غالبًا - أحكامًا يصلح لها التعميم؛ وإنَّما التفصيل بالدرجة الأساس. وهو ما سلكه النورسي؛ حيث فصلَّ الحكم بين النواحي الإيجابية والسلبية للموضوع. وهي طريقة منهجيةٌ في هداية المختلفين؛ حيث يقول النورسي: ولمَّا كان في الفكر القومي ذوقٌ للنفس، ولذَّةٌ تُغفل؛ وقوَّةٌ مشؤومةٌ، فلا يُقال للمشتغلين بالحياة الاجتماعية في هذا الوقت: دعوا القومية؛ ولكن القومية نفسها على قسمين² إيجابية، وسلبية.

أ/ المنطلق والأساس.

يرى النورسي أنَّ من القومية قسمٌ سلبيٌّ مشؤومٌ مضرٌّ، يترتَّى وينمو بابتلاع الآخرين، ويدوم بعداوة من سواه، ويتصرَّف بحذرٍ؛ وهو يولِّد المخاصمة والنِّزاع؛ ولهذا ورد في الحديث الشَّريف أنَّ الإسلام يجبُ ما قبله، ويرفض العصبيَّة الجاهليَّة. وأمَرَ القرآن الكريم بـ ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى

1- المكتوبات، مرجع سابق، ص 415-416.

2- المكتوبات، مرجع سابق، ص 414.

وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا¹ فهذه الآية الكريمة والحديث الشريف يرفضان رفضًا قاطعًا القومية السلبية وفكر العنصرية؛ لأنَّ الغيرة الإسلامية الإيجابية المقدسة لا تدع حاجة إليها.² وهو ما صاغه الثورسي بقوله داعيًا: سَأَبِينْ لَكُمْ دَسْتُورًا فِي الْأُخُوَّةِ عَلَيْكُمْ الْأَخْذُ بِهِ بَجْدٌ: إِنَّ الْحَيَاةَ نَتِيجَةُ الْوَحْدَةِ وَالْإِتِّحَادِ؛ فَإِذَا ذَهَبَ الْإِتِّحَادُ الْمَنْدَمَجُ الْمَمْتَرَجُ، فَالْحَيَاةُ الْمَعْنَوِيَّةُ تَذْهَبُ أَيْضًا أَدْرَاجَ الرِّيحِ. فالآية الكريمة: ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾³ تشير إلى أَنَّ التَّسَانُدَ وَالتَّرَابُطَ إِذَا اخْتَلَّ تَفَقَّدَ الْجَمَاعَةُ مَذَاقَهَا.⁴

ب/ مرتكزات القومية السلبية في فكر الثورسي.

هَنِّ ثَلَاثَةٌ كَالآتِي:

1/ الفلسفة المناددة للقرآن الكريم: إذ الفرق بين الأمرين: أَنَّ حِكْمَةَ الفلسفة ترى الْقُوَّةَ نَقْطَةً الْإِسْتِنَادِ فِي الْحَيَاةِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ؛ وَتَهْدَفُ إِلَى الْمَنْفَعَةِ فِي كُلِّ شَيْءٍ؛ وَتَتَّخِذُ الصَّرَاحَ دَسْتُورًا لِلْحَيَاةِ؛ وَتَلْتَزِمُ بِالْعَنْصَرِيَّةِ وَالْقَوْمِيَّةِ السَّلْبِيَّةِ رَابِطَةً لِلْجَمَاعَاتِ. أَمَّا ثَمَرَاتُهَا فَهِيَ إِشْبَاعُ رَغَبَاتِ الْأَهْوَاءِ وَالْمِيُولِ النَّفْسِيَّةِ الَّتِي مِنْ شَأْنِهَا تَأْجِيجُ جُمُوحِ النَّفْسِ، وَإِثَارَةُ الْهَوَى. وَمِنْ الْمَعْلُومِ أَنَّ شَأْنَ الْقُوَّةِ هُوَ الْإِعْتِدَاءُ؛ وَشَأْنَ الْمَنْفَعَةِ هُوَ التَّزَاحُمُ - إِذْ لَا تَقِي لَتَغْطِيَةَ حَاجَاتِ الْجَمِيعِ وَتَلْبِيَةَ حَاجَاتِ الْجَمِيعِ وَتَلْبِيَةَ رَغَبَاتِهِمْ - وَشَأْنَ الصَّرَاحِ هُوَ التَّنَازُعُ وَالْجِدَالُ؛ وَشَأْنَ الْعَنْصَرِيَّةِ هُوَ الْإِعْتِدَاءُ - إِذْ تَكْبُرُ بِإِبْتِلَاعِ غَيْرِهَا، وَتَتَوَسَّعُ عَلَى حَسَابِ الْعُنَاصِرِ

1- الفتح: 26.

2- المكتوبات، مرجع سابق، ص 414.

3- الأنفال: 46.

4- الملاحق، مرجع سابق، ص 58.

الأخرى-¹ أمّا حكمة القرآن فتلتزم برابطة الدين والصنف والوطن، لربط فئات الجماعات، بدلاً من العنصرية والقومية السلبية.² فهي تقبل الحقّ نقطة استناد في الحياة الاجتماعية بدلاً من القوة؛ وتجعل رضى الله ونيل الفضائل هو الغاية والهدف بدلاً من المنفعة.³

2/ المدنية الأوروبية الحديثة في صورها السيئة: إذ حين يصفها يقول:

فهذه المدنية الخبيثة التي لم نر منها غير الضرر، وهي المرفوضة في نظر الشريعة؛ وقد طغت سيئاتها على حسناتها؛ تحكم عليها مصلحة الإنسان بالنسخ، وتقضي عليها يقظة الإنسان وصحوته بالانقراض.⁴ فالمدنية الحاضرة تؤمن - بفلسفتها- أنّ ركيزة الحياة الاجتماعية البشرية هي القوة؛ وهي تستهدف المنفعة في كلّ شيء؛ وتتخذ الصّراع دستوراً للحياة؛ وتلتزم بالعنصرية والقومية السلبية رابطةً للجماعات. وغايته هي لهو عابث، لإشباع رغبات الأهواء وميول النفس التي من شأنها تزييد جموح النفس، وإثارة الهوى... فهذه الدساتير والأسس التي تستند إليها هذه المدنية الحاضرة هي التي جعلتها عاجزة - مع محاسنها- عن أن تمنح سوى عشرين بالمائة من البشر سعادةً ظاهرة؛ بينما ألقت البقية إلى شقاءٍ وتعاसेٍ وقلق.⁵

3/ انهيار القيم الروحية في مقابل المدنية الأوروبية:

1- بديع الزمان النورسي: الكلمات؛ ترجمة إحسان قاسم الصالحي؛ شركة سوزلر: القاهرة- مصر، 2000م، ص145.

2- المرجع نفسه، ص145.

3- المرجع نفسه، ص472.

4- صيفل الإسلام، مرجع سابق، ص357.

5- الكلمات، مرجع سابق، ص472.

وهي مبنية على الأساس السابق؛ حيث يعقد الثورسي المقارنة بين المدنية الأوروبية الحاضرة والمدنية التي ينشدها القرآن الكريم من حيث القيم التي قامت عليها كل منهما؛ فيقول: فدقق النظر في كل منهما، ثم انظر إلى آثارهما. إن أسس المدنية الحاضرة سلبية، وهي أسس خمسة، تدور عليها رحاها: فنقطة استنادها القوة بدل الحق؛ وشأن القوة الاعتداء والتجاوز والتعرض؛ ومن هذا تنشأ الخيانة. هدفها وقصدُها: منفعة خسيئة بدل الفضيلة؛ وشأن المنفعة: التزاحم والتخاصم؛ ومن هذا تنشأ الجناية. دستورها في الحياة: الجدل والخصام بدل التعاون؛ وشأن الخصام: التنازع والتدافع؛ ومن هذا تنشأ السفالة. رابطتها الأساس بين الناس: العنصرية التي تنمو على حساب غيرها؛ وتتقوى بابتلاع الآخرين. وشأن القومية السلبية والعنصرية: التصادم المربع - وهو المشاهد - ومن هذا ينشأ الدمار والهلاك. وخامستها: هي أن خدمتها الجذابة تشجيع الأهواء والنوازع؛ وتذليل العقبات أمامهما، وإشباع الشهوات والرغبات. وشأن الأهواء والنوازع دائماً: مسخ الإنسان، وتغيير سيرته؛ فنتغير الإنسانية، ونُمسح مسخاً معنوياً.¹

أما أسس مدنية القرآن الكريم فهي إيجابية تدور سعادتها على خمسة أسس إيجابية: نقطة استنادها: الحق بدل القوة؛ ومن شأن الحق دائماً: العدالة والتوازن؛ ومن هنا ينشأ السلام، ويزول الشقاء. وهدفها الفضيلة بدل المنفعة؛ وشأن الفضيلة: المحبة والتقارب؛ ومن هذا تنشأ السعادة وتزول العداوة. دستورها في الحياة: التعاون بدل الخصام والقتال. وشأن هذا الدستور: الاتحاد والتساند اللذان تحيا بهما الجماعات. وخدمتها للمجتمع: بالهدى بدل الأهواء والنوازع. وشأن الهدى: الارتقاء بالإنسان، ورفاهه إلى ما يليق به، مع تنوير الروح، ومدّها

بما يلزم. رابطتها بين المجموعات البشرية: رابطة الدين والانتساب الوطني؛ وعلاقة الصنف والمهنة وأخوة الإيمان. وشأن هذه الرابطة: أخوة خالصة، وطرده العنصرية والقومية السلبية. وبهذه المدنية يعم السلام الشامل، إذ هو في موقف الدفاع ضد أي عدوان خارجي.¹

ج/ السبب والشواهد.

إن الجوانب السلبية للقومية المذمومة؛ لها شواهدا التاريخيّة التي تدعم كونها مشؤومة؛ قال الثورسي: وكذلك شعوب أوروبا لما دعوا إلى العنصرية، وأوغلوا فيها في هذا العصر نجّم العداؤ التاريخي المليء بالحوادث المريعة بين الفرنسيين والألمان. كما أظهر الدمار الرّهب الذي أحدثته الحرب العالميّة، مبلغ الضرر الذي يلحقه هذا الفكر السلبي للبشريّة.² ولها كذلك عنده شاهد من التاريخ الإسلامي إذ قال: لقد ظهرت أضرار النعرة القوميّة والعنصريّة في عهد الأمويين، كما فرقت النّاس شرّ فرقة في بداية عهد الحرّيّة وإعلان الدستور؛ حيث تأسّست النوادي والتكتلات؛ كما استغلّت إثارة النّعرة القوميّة مجدداً للتفريق بين الإخوة العرب النّجباء، وبين الأتراك المجاهدين، فعمّ الاضطراب، وسلبت راحة النّاس.³

وأردف في مناسبة أخرى قائلاً: علماً أنّ الإضرار بالنّاس بأعمال سلبية هو فطرة القوميّة والعنصريّة التي فطروا عليها. والأتراك مسلمون في أنحاء العالم كافة؛ فقوميتهم مزجت بالإسلام، لا يمكن فصلهم عنه، فالتركي يعني المسلم،

1- المرجع نفسه، ص 855-856.

2- المكتوبات، مرجع سابق، ص 414.

3- الملاحق، مرجع سابق، ص 415.

حتى إنَّ غير المسلم منهم لا يكون تركياً. وكذلك العرب فإنَّ قوميتهم مزجت بالإسلام أيضاً، وينبغي هكذا. فقوميّتهم الحقيقيّة هي الإسلام، وهو حسبهم.¹

ب/ العوائق.

بناءً على ما سبق بيانه من الشواهد التاريخيّة؛ تنشأ عوائق في طريق تلافي سلبيات المفاهيم القوميّة؛ ويزيد في تعميقها طبيعة تعقيدات الاجتماع الإنساني، وكذلك ارتباط المفاهيم القوميّة بالمفاهيم الوطنية. هذه الأخيرة -أي الوطنية- قليلة السلبيات عموماً؛ وتشكّل مدخلاً إلى الجوانب السلبية للقوميّة.

وقد كان النورسي على وعيٍ بتلك المعوّقات، وبوضعها؛ قال النورسي: لقد انتشر الفكر القومي وترسّخ في هذا العصر. ويثير ظالموا أوروبا الماكرون بخاصة هذا الفكر بشكله السّلبي في أوساط المسلمين ليمزّقوهم، ويسهل لهم ابتلاعهم.²

ومن أهمّ العوائق تقليد الغرب؛ وهذه حقيقة لا غبار عليها؛ "فكلُّ دول العالم يجب أن تتبع الخطَّ الأوروبي في هذا المجال؛ وأنّه لا سبيل إلّا اتّباع هذا الخط الذي تُمثّل أوروبا قمتّه؛ وتصنّف المجتمعات البشريّة طبقاً لقربها أو بعدها عن هذا الخطّ. وثمة تغافل من الأطروحات الأوروبيّة لطبيعة المجتمعات الأخرى بمكوّناتها الثقافيّة والمؤسّسيّة؛ ومن ثمّ تقويم إمكانيّة التغيير للمجتمعات التي ليست على صورتها بما في ذلك أسس الثقافة، وأنماط التفكير ومنطلقاته، وحتى نظم المؤسّسات. وهذا ما لا يمكن تحقيقه نظراً لما تمتلكه المجتمعات من ميراثٍ تاريخيٍّ، ومخزونٍ ثقافيٍّ وروحيٍّ، ونفسيٍّ".³

1- المرجع نفسه، ص415.

2- المكتوبات، مرجع سابق، ص 414.

3- عثمان بن صالح العامر: المواطنة في الفكر الغربي المعاصر، دراسة نقدية من منظور إسلامي، مجلة جامعة دمشق، المجلد التاسع عشر، العدد الأول، 2003م، ص224.

والثورسي يرى في ذلك التقليد الأعمى ضياع التنوع الذي ينبغي أن يطبع الاجتماع الإنساني؛ وفي هذا السياق يقول: إنَّ الأقوام المتبقّطة في آسيا قد تمسّكوا بالقومية، وحذوا حذو أوروبا في كلِّ النواحي؛ حتّى ضحوا بكثيرٍ من مقدّساتهم في سبيل ذلك التقليد. والحالُ أن كلَّ قومٍ يلائمه لباسٌ على قدّه وقامته؛ وحتّى لو كان نوع القماش واحداً، فإنّه يلزم الاختلاف في الطراز. إذ لا يمكن إلباس المرأة ملابس الشّرطي، ولا يمكن إلباس العالم الدينيّ ملابس الخليعات. فالتقليد الأعمى يؤدّي في كثيرٍ من الأحيان إلى حالةٍ من الهزء والسخرية كهذه، لأنّ:

أولاً: إن كانت أوروبا حانوتاً أو ثكنةً عسكريّةً، فإنّ آسيا تكون بمثابة مزرعةٍ، أو جامعٍ. وإنَّ صاحب الحانوت قد يذهب إلى المسرح، بينما الفلاح لا يكثر به. وكذلك تباين أوضاع الثكنة العسكريّة، والمسجد، أو الجامع. ثمَّ إنّ ظهور أكثر الأنبياء في آسيا، وظهور أغلب الحكماء والفلاسفة في أوروبا، رمزٌ للقدر الإلهي، وإشارةً منه إلى أنّ الذي يوقظ أقاليم آسيا ويدفعهم إلى الرقيّ، ويحقّق إدامة إدارتهم هو الدّين والقلب. أمّا الفلسفة والحكمة فينبغي أن تُعاوننا الدّين والقلب، لا أن تحلّا محلّهما.

ثانياً: لا يُقاس الدّين الإسلامي بالنّصرانيّة، إذ إنّ تقليد الأوروبيين في إهمالهم دينهم تقليداً أعمى خطأً جسيماً. لأنّ الأوروبيين متمسّكون بدينهم أولاً؛ والشاهد على هذا: في المقدّمة ولسن، ولويد جورج، وفينزيلوس، وأمثالهم من عظماء الغرب، فهم متمسّكون بدينهم كأيّ قسٍّ متعصّب. فهؤلاء شهود إثبات أنّ أوروبا مالكةٌ لدينها، بل تعدّ متعصّبةً.

ثالثًا: إنَّ قياس الإسلام بالنَّصرانيَّة قياسٌ مع الفارق، وهو قياسٌ خطأ محض. لأنَّ أوروبا عندما كانت متمسكةً بل متعصبةً لدينها لم تكن متحضرة، وعندما تركت التعصُّب والالتزام بدينها تحضَّرت...¹

●المبحث الرابع: أعماله وتوصياته.

لمَّا اجتمع في مسائل القومية الوطنية الخير والشرُّ، والتبس فيهما الحقُّ بالباطل، وتنازع النَّاس فيهما وفق اختلاف المنازع والأغراض؛ كان للثورسي - الذي اشتغل بالإصلاح كلِّ حياته - وقفةٌ للنُّصح لكلا الفريقين من النَّاس؛ غرضه ربط النَّاس بالهداية الربَّانية القرآنية، وذلك كآلاتي:

أ/ النصيحة لأهل القومية الإيجابية، أو المترددين.

يزيدهم فيها حنًا على التشبُّث بالملية والحمية الإسلامية؛ ويدعوهم إلى الافتخار بالخيارات التاريخية التي أقدموا عليها منذ أسلافهم. وإذا كان الثورسي يرى بأنَّ هناك سنَّة أمراض هي سبب التخلف لدى المسلمين؛ ورابعها: الجهل بالروابط الثورانية التي تربط المؤمنين بعضهم ببعض.² فإنَّه توجَّه أولًا إلى العرب قائلًا: وإنَّني أوجَّه كلامي هذا بوجهٍ خاصٍّ إليكم يا معشر العرب العظماء الأماجد؛ ويا من أخذتم من التيقظ حظًّا؛ أو ستتيقظون تيقظًا تامًّا في المستقبل. لأنَّكم أسأذنتنا، وأسأذنة جميع الطوائف الإسلامية وأنمَّتها. فأنتم مجاهدو الإسلام الأوائل؛ ثمَّ جاءت الأمة التركية العظيمة لتمدَّ وظيفتكم المقدَّسة تلك أيَّما إمداد.³ ثمَّ يتوجَّه إلى قومه الأتراك ثانيًا فيقول: إنَّ الحمية الدينيَّة والملية الإسلامية قد امتزجتا في الترك والعرب مزجًا لا يمكن فصلهما. وإنَّ الحمية الإسلامية هي

1- المكتوبات، مرجع سابق، ص 416-417.

2- صيقل الإسلام، مرجع سابق، ص 491-492.

3- المرجع نفسه، ص 512.

أقوى وأمتن حبلٍ نوراني نازلٍ من العرش الأعظم؛ فهي العروة الوثقى لا انفصام لها؛ وهي القلعة الحصينة التي لا تهدم.¹

ويقول كذلك: أيُّها الأخ الثُّركي: احذر وانتبه، أنت بالذات؛ فإنَّ قوميتك امتزجت بالإسلام امتزاجًا لا يمكن فصلها عن الإسلام؛ ومتى حاولت عزلها عن الإسلام فقد هلكت إدًا، وانتهى أمرُك. ألا ترى أنَّ جميع مفاخرِك في الماضي قد سجَّلت في سجل الإسلام. وإنَّ تلك المفاخر لا يمكن أن تمحى من الوجود قطعًا؛ فلا تمحُها أنت من قلبك بالاستماع إلى الشُّبهات التي تنيرها شياطين الإنس.²

وليزيدهم تشبُّهًا بالقومية الإيجابية وعدم التنازل عنها فإنَّهم يذكِّرهم بالمخاطر المحيطة والمتربِّصة بهم؛ وخطابه أشبه أن يكون مقتبسًا من خطاب الله تعالى ممتنًا على المؤمنين: « وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَى حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا »³؛ يقول رحمه الله تعالى: أمَّا الآن فإنَّ التباغض والتنافر بين عناصر الإسلام وقبائله - بسببٍ من الفكر القومي - هلاكٌ عظيمٌ، وخطبٌ جسيم. إذا إنَّ تلك العناصر أحوج ما يكون بعضهم لبعضٍ، لكثرة ما وقع عليهم من ظلم وإجحافٍ؛ ولشدة الفقر الذي نزل بهم، ولسيطرة الأجانب عليهم، كلُّ ذلك يسحقهم سحقًا. لذا فإنَّ نظر هؤلاء بعضهم لبعضٍ نظرةَ العداة مصيبةٌ كبرى لا توصف، بل إنَّه جنونٌ أشبه ما يكون بجنون من يهتم بلسع البعوض، ولا يعبأ بالثعابين الماردة التي تحوم حوله. نعم، إنَّ أطماع أوروبا التي لا تفتقر ولا تشبع، هي كالثعابين الضخمة الفاتحة أفواهها للابتلاع. لذا فإنَّ عدم الاهتمام بهؤلاء الأوروبيين، بل معاونتهم معنًى بالفكر العنصريِّ السِّلبي، وإنماء روح العداة إزاء المواطنين

1- المرجع نفسه، ص 517.

2- المكتوبات، مرجع سابق، ص 417.

3- آل عمران: 103.

القاطنين في الولايات الشرقيّة، أو إخواننا في الدّين في الجنوب، هلاكٌ، وأيّ هلاكٍ وضررٍ وبيلٍ. إذ ليس بين أفراد الجنوب من يستحقُّ أن يُعادى حقًّا؛ بل ما أتى من الجنوب إلّا نور القرآن، وضياء الإسلام، الذي شَعَّ نورهُ فينا، وفي كلّ مكانٍ. فالعداء لأولئك الإخوان في الدّين، وبدوره العداء للإسلام، إنّما يمَسُّ القرآن، وهو عداءٌ لجميع أولئك المواطنين، ولحياتهم الدنيويّة والأخرويّة. لذا فادّعاء الغيرة القوميّة بنية خدمة المجتمع يهدم حجر الزاوية للحياتين معًا؛ فهي حماقةٌ كبرى، وليست حميّةً وغيره قطعاً.¹

ب/ النصيحة للمتعبين للقوميّة السلبية، والتحذير منهم.

وقد جاءت النصائح في شكل الوعظ أحياناً، كقول الثّورسي مثلاً: اعلم أنّ العصبية العنصريّة الجاهليّة، ماهي إلّا الغفلة المتساندة المتصالبة، وإلّا الضلالة والرياء، والظلم المتجاوبة المتعاونة؛ فيصير الخلق وملّته كمعبوده العباد بالله. وأما الحميّة الإسلاميّة فهي النور المهترئ المنعكس من ضياء الإيمان.²

وأحياناً يشنّد معهم في الألفاظ - وفي تضاعيفها الرحمة - كقوله لهم: يا أدعياء القوميّة السّكاري: إنّ العصر السابق ربّما يكون عصر القوميّة؛ أمّا هذا العصر فليس بعصر القوميّة. إذ إنّ مسائل البلشفيّة، والاشتراكية تستحوذ على الأفكار، وتحطّم مفهوم العنصريّة؛ فلقد ولّى عصر العنصريّة. واعلموا أنّ مليّة الإسلام الدائمة الأبدية لا ترتبط مع العنصريّة المؤقتة المضطربة، ولا تلقّح بقلّقاتها.³

كما يحتقر في أحيانٍ كثيرةٍ سوء المستثمرين في المعاني الباطلة؛ ويكشف زيفهم للنّاس؛ من مثل قوله: فمعظم هؤلاء المدنيّين لو انقلب باطنهم بظواهرهم

1- المكتوبات، مرجع سابق، ص 415.

2- المثنوي العربي الثّوري، مرجع سابق، ص 213.

3- المكتوبات، مرجع سابق، ص 566.

لوجد الخيال اتجاّاهه صور الذناب والدببة والحَيّات والقردة والخنازير...؛ بيّد أنّ سعادة هذه المدنيّة هي لأقلّ القليل من النّاس.¹

وجاءت النصيحة في أحيانٍ أخرى في شكل توضيحاتٍ علميّة أو تاريخية للمستندات التي يعتمدُها المقتنعون بالقومية السليبيّة؛ قال النّورسي:

لقد حدثت هجراتٌ كثيرة جدًّا في بقاع الأرض كلّها؛ ولا سيّما في بلادنا هذه منذ سالف العصور. وتعرّضت أّقوامٌ كثيرة إلى تغيّراتٍ وتبدّلاتٍ كثيرة؛ وازدادت تلك الهجرات إلى بلادنا بعد أن أصبحت مركزًا للحكومة الإسلاميّة حتّى حامت سائر الأّقوام كالفراش حولها؛ وألّقت بنفسها فيها واستوطنتها. فلا يمكن -والحال هذه- تمييز العناصر الحقيقيّة بعضها عن بعض، إلّا بانفتاح اللّوح المحفوظ. ولأجل هذا اضطرُّ أحد دعاة العنصريّة والقوميّة السليبيّة -الذي لا يقيم وزنًا للدين- أن يقول: إذا اتّحد الدّين واللّغة فالأمّة واحدة. ولمّا كان الأمر هكذا فلا بدّ من النظر إلى اللّغة والدّين والروابط الوطنيّة؛ لا إلى العنصريّة الحقيقيّة. فإن اتّحدت هذه الثلاثة، فالأمّة قويّة إذا بذاتها؛ وإن نقص أحد هذه الثلاثة فهو داخل أيضًا ضمن القوميّة.²

وفي أحيانٍ أخرى تأتي النصيحة في شكل توجيههم إلى القوميّة الإسلاميّة الإيجابيّة؛ وهنا يقول النّورسي: نبيّن فائدتين -على سبيل المثال- من مئات الفوائد التي تُكسبها الحيّة الإسلاميّة المقدّسة للحياة الاجتماعيّة لأبناء هذا الوطن: **الفائدة الأولى:** إنّ الذي حافظ على الحياة الإسلاميّة وكيانها -رغم أنّ تعدادها ثلاثون مليونًا- اتّجاه جميع دول أوروبا العظيمة، هو هذا المفهوم النابع من القرآن الذي يحمله جيشُها: « إذا متُّ فأنا شهيدٌ؛ وإذا قُلتُ فأنا مجاهدٌ ». هذا المفهوم دفع أبناء الوطن إلى استقبال الموت باسمين، ممّا هزّ قلوب

1- صيفل الإسلام، مرجع سابق، (ص357).

2- المكتوبات، مرجع سابق، ص 419.

الأوروبيين وأرهبهم. تُرى أي شيء يمكن أن يبرز في الميدان، ويبعث في روح الجنود مثل هذه التضحية والفداء، وهم ذوو أفكار بسيطة وقلوب صافية؟ أية عنصرية يمكن أن تحلّ محلّ هذا المفهوم العلوي؟ وأي فكر غيره يمكن أن يجعل المرء يضحي بحياته وبدنيته كلّها طوعاً في سلبه؟

ثانياً: ما آذت الدول الأوروبية الكبرى، وثعابينها المردة هذه الدولة الإسلامية، وتوالت عليها بضرباتها إلّا وأبكت ثلاثمائة وخمسين مليوناً من المسلمين في أنحاء العالم، وجعلتهم يئنّون لأذاها؛ حتّى سحبت تلك الدول الاستعمارية يدها عن الأذى والتعديّ لتحول دون إثارة عواطف المسلمين عامّة، فتخلّلت عن الأذى. فهل تستصغر هذه القوة الظهيرة المعنوية والدائمة لهذه الدولة، وهل يمكن إنكارها؟ ترى أية قوّة يمكن أن تحلّ محلّها؟ فهذا ميدان التحديّ، فليُظهروا تلك القوة. لذا ينبغي ألاّ نجعل تلك القوة الظهيرة العظمى تعرض عنّا لأجل التمسك بقومية سلبية وحمية مستغنية عن الدين.¹

وأحياناً يقفهم النورسي مع أنفسهم، ليراجعوا أفكارهم، ومشاعرهم، وصدقهم؛ قال رحمه الله تعالى: نقول للذين يبدون حماسة شديدة للقومية السلبية: إن كنتم حقّاً تحبّون هذه الأمة حبّاً جاداً خالصاً، وتشفقون عليها، فعليكم أن تحملوا في قلوبكم غيرَةً نسعُ الإشفاق على غالبية هذه الأمة، لا على قلة قليلة منها؛ إذ إنّ خدمة اجتماعية مؤقّته غافلة عن الله - وهم ليسوا بحاجة إلى الرأفة والشفقة - وعدم الرأفة بالغالبية العظمى منهم، ليس من الحمية والغيرة في شيء.²

ج/ السعي في تحويل المعنويات إلى وقائع ماثلة للعيان.

لقد أراد النورسي أن تتحقّق القومية الإسلامية والحمية المليّة عمليّاً؛ ولا وسيلة في ذلك أنجع من دور العلم؛ ولذلك عمل على تأسيس "المدرسة الزهراء"

1- المرجع نفسه، ص 420.

2- المرجع نفسه، ص 420-421.

لتحقيق تلك الغاية، أو لتكون البذرة في ذلك المجال؛ يقول رحمه الله تعالى: إنَّ الجامع الأزهر مدرسة عامَّة في قارة أفريقيا؛ فمن الضروريّ إنشاء جامعة في آسيا على غرارهِ، بل أوسع منه بنسبة سعة آسيا على أفريقيا؛ وذلك لئلا تُفسد العنصريَّةُ الأقوامَ في البلدان العربيَّة والهند وإيران والفقاس وتركستان وكردستان؛ وذلك لأجل إنماء الرُّوح الإسلاميَّة التي هي القوميَّةُ الحقيقيَّة الصائبة السامية الشاملة؛ فتتال شرف الامتثال بالدستور القرآني «إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ»¹ وكذلك لتتصافح العلوم النابعة من الفلسفة مع الدِّين؛ وتتصالح الحضارة الأوروبيَّة مع حقائق الإسلام مصالحةً تامَّةً؛ ولتتفق المدارس الحديثة، وتتعاون مع المدارس الشرعيَّة في الأناضول. لقد بذلتُ جهدي كلَّه لتأسيس هذه الجامعة في مركز الولايات الشرقيَّة التي هي وسطُ بين الهند والبلاد العربيَّة وإيران والفقاس وتركستان؛ وأسميتها: " المدرسة الزهراء " فهي مدرسة حديثة، ومدرسة شرعيَّة في الوقت نفسه.²

كما كان رحمه الله تعالى يحارب دعويًّا القوميَّة السليبيَّة؛ جاعلاً مصلحة الإسلام والمسلمين العامَّة في المقام الأوَّل، قبل أيِّ مصلحةٍ أو حقيقةٍ تقع في دائرة أدنى منها؛ وهو ما أختتم به هذه الورقة من هذه الحكاية التي يقصُّها علينا الثُّورسي رحمه الله تعالى، فيقول: حينما كنت في مدينة "وان" قلت لأحد طُلَّابي الأكراد الغيورين: لقد خدم الأتراك الإسلامَ كثيرًا، فكيف تراه؟ قال: إنِّي أفضلُ تركيًّا مسلمًا على شقيقي الفاسق؛ بل أرتبطُ به أكثر من ارتباطي بوالدي، لخدمته الإيمانيَّة خدمةً فعليَّةً. ومَرَّت الأيام والسنون، ودخل ذلك الطالب - أيَّام أسري - المدرسة الحديثة في إستانبول. ثمَّ قابلته بعد عودتي، فلمست أنَّ عِرْقَ القوميَّة الكرديَّة قد تحرَّك فيه من جرَّاء الدعوى العنصريَّة التركيَّة لدى بعض معلِّميه.

1- الحجرات: 10.

2- الملاحق (ملحق أمير داغ)، مرجع سابق، ص 417.

فقال لي: إنِّي أَفْضَلُ الآنَ كَرْدِيًّا فَاسِقًا مُجَاهِرًا، بَلْ مَلْحَدًا عَلَى تَرْكِيٍّ صَالِحٍ. ثُمَّ جَلَسْتُ مَعَهُ بَضْعَ جُلُوسَاتٍ فَأَنْقَذْتُهُ بِإِذْنِ اللَّهِ؛ فَاقْتَنَعْتُ أَنَّ الْأَتْرَاكَ هُمْ جُنُودُ أَبْطَالٍ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ.¹

● خاتمة.

في آخر هذه المقالة، يَجْمَلُ بِنَا الْوُقُوفِ عَلَى أَهْمِ النَّتَائِجِ الْمُتَوَصِّلِ إِلَيْهَا مِنْ خِلَالِ الْعَرْضِ كَالآتِي:

● الْقَوْمِيَّةُ وَالْوَطَنِيَّةُ مُنْقَسِمَتَانِ بِاعْتِبَارِ مَا تُحْوِيَانِهِ مِنَ الْمَفَاهِيمِ وَالتَّوْجُّهَاتِ الْإِيجَابِيَّةِ وَالسَّلْبِيَّةِ.

● الْقُرْآنُ الْعَظِيمُ حَاكِمٌ عَلَى الْجَمَاعَةِ الْبَشَرِيَّةِ، وَعَلَى احْتِكَائِ الْجَمَاعَاتِ الْبَشَرِيَّةِ بَعْضُهَا مَعَ بَعْضٍ؛ وَيُرْسِمُ لَهُ خُطُوطًا عَرِيضَةً تَجْعَلُهُ مَثْمَرًا وَنَافِعًا لِلْجَمِيعِ، لَا لِبَعْضِهِمْ عَلَى حَسَابِ بَعْضٍ.

● لَا بَدَّ مِنْ اعْتِبَارِ الْجَوَانِبِ الْإِيجَابِيَّةِ لِلْقَوْمِيَّةِ، وَالتِّي بَلَغَتْ ذُرُوتَهَا فِي الْقَوْمِيَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ الَّتِي لَا تَقِيمُ الْعَدَاوَةَ وَفَقِ الْاِخْتِلَافَاتِ الْكَثِيرَةِ الْحَاصِلَةِ بَيْنَ الْجَمَاعَاتِ الْبَشَرِيَّةِ كَالْجِنْسِ وَاللَّوْنِ وَالْعِرْقِ وَاللِّسَانِ وَنَحْوِهَا.

● لَا بَدَّ مِنْ اجْتِنَابِ الْجَوَانِبِ السَّلْبِيَّةِ لِلْقَوْمِيَّةِ، أَوْ عَلَى الْأَقْلِ تَقْلِيلِ آثَارِهَا وَتَفَاعُلَاتِهَا، وَجَعْلَ الْاِخْتِلَافِ شَيْئًا مَثْمَرًا نَافِعًا، لَا أَدَاةً لِلتَّقْسِيمِ وَالانْقِسَامِ، أَوْ أَدَاةً طَبِيعَةً فِي يَدِ الْاِسْتِعْمَارِ وَالْاِسْتِغْلَالِ.

● مَفَاهِيمُ الْقَوْمِيَّةِ وَالْوَطَنِيَّةِ لَا بَدَّ فِيهَا مِنْ تَتَاغَمٍ يَرْبِطُ كُلَّ كُنْثَةٍ بَشَرِيَّةٍ بِمَنْ دُونِهَا، وَمِنْ فَوْقِهَا؛ لِتَكُونَ الْغَايَةُ فِي النِّهَايَةِ تَحْقِيقُ خَيْرِ الْبَشَرِيَّةِ جَمْعَاءَ، وَتَحْقِيقُ الْغَايَةِ الْقُرْآنِيَّةِ الْإِلَهِيَّةِ: "لَتُعَارَفُوا".

- التورسي عالم قرآني ربّاني؛ عاش لا يعرف الانهزاميّة، ولا اليأس؛ عدوّاً للسليبيّة، باعناً للإيجابيّة، يسعى لخير البشريّة جميعاً؛ ذابّاً عنها ما من شأنه أن يدمّر اجتماعها وعمرانها؛ ويهزم الروحانيّة فيها، وروابطها المختلفة.